كتب بالعبرية

متى وكيف اختُرعت أرض إسرائيل

شلومو زاند

تل أبيب: كنيريت، زموره بيتان، دبير، ٢٠١٢. ٢٧٨ صفحة.

يُنظر إلى الثالوث المقدس المهيمن في عصرنا على الفكر الديني اليهودي والصهيوني: "توراة إسرائيل"، و"شعب إسرائيل"، و"أرض إسرائيل"، وعلى أقل تقدير في أحد أهم التوجهات اليهودية المركزية، بصفته ثالوثاً يهودياً أزلياً عمره بعمر الخلق، ومصيره أن يندثر عند مجيء المسيح المنتظر إذ ستتّحد هذه الأضلع الثلاث معاً: خلاص شعب توراة إسرائيل في أرض إسرائيل، ليشكّلوا شيئاً واحداً هو الخلاص (غؤولاه). ويُعتبر هذا الثالوث أحد أهم الأساطير المؤسسة للأيديولوجيا الصهيونية. وفي الحقيقة، فقد تبلور هذا الثالوث بصورة خاصة على يد الحاخام أبراهام يتسحاق هكوهن كوك (ليتوانيا ١٨٦٥ـ فلسطين ١٩٣٥) أحد أهم المؤسسين للتيار الصهيوني الديني. وبينما شددت الحركة العمالية الصهيونية والحركات الاشتراكية اليهودية الأُخرى والحركة التصحيحية الصهيونية على "شعب إسرائيل" و"أرض إسرائيل" واعتبرت "توراة إسرائيل" سنداً تاريخياً أو توثيقاً للتاريخ اليهودي القديم أو إرثاً ثقافياً، وشددت الحركات الدينية الأورثوذكسية (الحريدية) على "توراة إسرائيل" و"شعب إسرائيل" واعتبرت "أرض إسرائيل" أرضاً مقدسة يُحرم الإقامة فيها لصعوبة التقيّد بالفرائض الدينية الخاصة بها، فقد جاء التيار الصهيوني الديني وطرح منذ مطلع عشرينيات القرن العشرين "حلاً توفيقياً" يجمع بين الطرفين، ويتلخص بهذا الثالوث المقدس. وفي الحقيقة، فإننا نشهد مع مرور السنين تحولات داخل هذين الطرفين، إذ اقترب الطرف الاشتراكي القومي إلى أطروحة "توراة إسرائيل" بصفته كتاباً مقدساً، ومن الطرف الآخر اقترب الطرف الأورثوذكسي أكثر فأكثر إلى الطرح الذي يوجب شرعاً الاستيطان في فلسطين، أو على أقل تقدير لا يحرّمه. وبشأن هذا التحول الأخير أصدرتُ سنة ٢٠٠٥ كتاباً بعنوان: "عودة إلى التاريخ المقدس: الحريدية والصهيونية" (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع).

أمّا التيار الصهيوني الديني فلا يعترف بأنه بلور طرحاً جديداً، وإنما يقول إن هذا الطرح الذي يلخّصه بتعبير "صهيونية"، كان كامناً دوماً في اليهودية، وما فعله هذا التيار ما هو إلاّ إزالة الغبار عنه، وتقديمه من جديد. واستناداً إلى هذا يعود بعض الباحثين المنتمين إلى هذا التيار عقائدياً إلى إزالة الغبار عن "صهيونية" حاخامات الديانة اليهودية

القدماء أو حركات أو تيارات يهودية قديمة. وأحد الأمثلة الشائعة بين المنتمين أو المقرّبين إلى هذا التيار هو الشاعر الأندلسي يهودا اللاوي (١٠٨٥؟ – ١١٤١) صاحب "الكتاب الخزري: كتاب الحجة والدليل في الدين الذليل" (الذي صدر مؤخراً بالعبرية بأحرف عربية عن منشورات الجمل، ٢٠١٢).

أثار صدور كتاب "متى وكيف اختُرع الشعب اليهودي" للباحث الإسرائيلي شلومو زاند، الصادر بداية باللغة العبرية في سنة ٢٠٠٨ (وبالعربية بعنوان "اختراع الشعب اليهودي"، رام الله: مدار، ٢٠١٠) ضجة إعلامية بالغة محلياً وعالمياً لأنه حاول الكشف عن زيف الادعاء الصهيوني المتعلق بإحدى أضلاع هذا الثالوث المقدس: الشعب اليهودي. وقد سعى لتقويض مفهوم "شعب" في كل ما يتعلق بجماعة الدين اليهودي المستند إلى الطرح الصهيوني القائل إن جماعة اليهود تُعتبر شعباً لأن علاقة عرقية أساساً تربط بين المنتمين إليها. ويطلعنا الباحث في كتابه الحالي على أن كتابه السابق ("اختراع الشعب اليهودي") سعى، اعتماداً على أبحاث ومواد ومصادر تاريخية، لتفنيد الاصطلاحات الماهوية والمركزية الإثنية واللا ـ تاريخية القائمة في تعريف اليهودية والهوية اليهودية (ص ٢١).

وشبيهاً بحالة القومية التي ظهرت أوروبياً (في نهاية القرن الثامن عشر) في جو مفعم بخطاب عرقي "علمي" يعتمد على تصنيف الفئات البشرية أساساً إلى أعراق، هناك فكرة "الوطن" التي ظهرت هي الأُخرى في تلك الحقبة التاريخية بتصوراتها ومفاهيمها وتفسيراتها الدينية. كذلك، وبالتزامن مع اختراع الشعب اليهودي "علمياً" ومسيحيانياً إنجيلياً على يد أوروبيين، مناهضين دينياً وسياسياً لليهود من جهة، ومتضامنين جداً معهم من جهة أُخرى، جرى اختراع فكرة "أرض إسرائيل" كأرض جغرافية ذات أبعاد سياسية، وموطن الشعب اليهودي في الفترة ذاتها على يد هاتين الفئتين معاً.

وقبل عرض مباحث الكتاب وأطروحاته لا بد لنا من أن ننوّه بأن اللافت للنظر هو أن الباحث شلومو زاند، وخلافاً للاختيار "الأذكى" وفق المعايير الأكاديمية المعتمدة عالمياً ومحلياً، اختار أن ينشر كتابيه بداية باللغة العبرية، علماً بأنه كان يمكنه نشرهما باللغة الإنجليزية أو الفرنسية وهما لغتان يتقنهما جيداً. ولهذه الحقيقة بعض الدلالات المهمة: أولاً، يشير هذا الاختيار إلى مدى شجاعة هذا الباحث، وذلك خلافاً لبعض زملائه الذين ينشرون بعض القضايا "الحساسة" صهيونياً بلغات غير العبرية، ثم ينقلونها إلى العبرية بعد أن يُدخلوا عليها "تعديلات" بحيث تتلاءم والإجماع الصهيوني بغرض عدم "التطاول" على المجتمع الإسرائيلي وزعزعة المسلمات التي يستند إليها، وهذا بهدف عدم دفع ثمن باهظ لجرأته البحثية؛ ثانياً، إن الجمهور الهدف الذي يخاطبه الباحث هو الجمهور الإسرائيلي تحديداً، فهو يتوجه إليه بلغته ويحيله على مصادر أولية ومراجع بحثية منشورة باللغة العبرية أساساً؛ ثالثاً، لا يفترض الباحث أن على البحث الأكاديمي أن يستمر في عزلته عن المجتمع، وإنما على العكس من ذلك، فإنه يرى أن للبحث الأكاديمي رسالة اجتماعية وسياسية أيضاً، أو أن هذا البحث يتغذّى ويعتمد على أسس اجتماعية وسياسية وثقافية. ويتعزز هذا الاستنتاج

حين نلتفت إلى هوية دور النشر التي يختارها لنشر دراساته، فهي جميعاً غير جامعية (مثل: "عام عوفيد"؛ "رسلينغ"؛ "كنيريت، زموره بيتان، دبير")، ومتوفرة أمام الجمهور الأكاديمي وغير الأكاديمي على حد سواء، ذلك بأن دور النشر الجامعية لا تعتمد التسويق خارج البرج العاجي الأكاديمي الجامعي، ولا تطمح إلى ذلك؛ رابعاً، خلافاً للعديد من زملائه، فإن الحصول على درجات وعلاوات إدارية وأكاديمية في الجامعة، والتي تترجَم إلى وظائف وميزانيات بحث ومنح وأوسمة، وفق النهج المعتمد في الجامعات عامة، والإسرائيلية خاصة، ليس هو الدافع الأساسي وراء نشر أبحاثه، وإنما هو المساهمة في التغيير الاجتماعي والثقافي في المجتمع، ونستدل على ذلك من خلال اعتماده على المناهج البحثية النقدية والابتعاد عن المناهج التحليلية المحافظة والوظيفية التي تنأى بنفسها عن المساهمة في إحداث تغييرات في المجتمع؛ خامساً، يمكننا الجزم بأن الباحث زاند يولي دور المفكر عامة، والمؤرخ خاصة، على صعيد بناء الهوية الجمعية، أهمية بالغة جداً ، الأمر الذي يحمّله مسؤولية أخلاقية. وعليه، فإننا لا نبالغ حين نصف الباحث شلومو زاند بأنه أقرب إلى المفكر العضوي، وفق اصطلاح غرامشي، منه إلى الباحث أو المفكر المنسلخ عن مجتمعه، المحافظ على كرسيه في البرج العاجي، والذي لا يرى نفسه شريكاً في بلورة وصوغ طموحات وسلوكيات المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه.

يسعى زاند من وراء بحثه هذا لتقويض مركّب آخر في الثالوث المقدس: "أرض إسرائيل" بصفتها وطناً للجماعة الدينية اليهودية.

يُهدي الباحث الكتاب إلى أرواح سكان قرية الشيخ مونّس الذين اقتُلعوا من قريتهم التي أقيمت على أنقاضها جامعة تل أبيب حيث يعمل الباحث ويكتب دراسته هذه، ويخصص خاتمة الكتاب لعرض مصير القرية ومحيطها المعماري.

يطلعنا الباحث في مستهل تقديمه على خبرته الشخصية كجندي في الجيش الإسرائيلي حين اكتشف خلال حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧ هوس توسيع حدود دولة إسرائيل لدى الجنود والضباط كي تضم أكبر مساحات ممكنة من الأراضي شرقي القسم الغربي للقدس وصولاً إلى منطقة الغور ونهر الأردن. ويكشف الباحث أمام القرّاء شهادته الشخصية على مقتل أحد المسنين الفلسطينيين الذين أمسك به الجنود في منطقة أريحا، واكتشفوا أن لديه أموالاً كثيرة بعملة الدولار. لقد أقدم الجنود على تعذيب هذا المسن الفلسطيني إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة، وكانت وظيفة الباحث آنذاك حراسة غرفة التعذيب من الخارج، لكنه استرق النظر وشاهد عملية التعذيب. ويعترف الباحث بأن عملية التعذيب والقتل هذه عذّبت ضميره أعواماً طويله لأنه لم يحاول منعها: "يبدو أن عملية القتل هذه لا تزال تسكن في داخلي حتى يومنا هذا." وقد توصّل عبر التجربة إلى خلاصة فحواها أن "القوة العظيمة قد تفضي إلى إحساس بالسطوة التي لا يمكن تحمّلها، سطوة على أناس آخرين تنتهي في نهاية المطاف إلى سطوة على المكان"، علاوة على أن هذه القوة العظيمة "قد تفضي إلى إجرام مُفسد" أيضاً (ص ١٦). وبعد مرور عام على تلك التجربة الشخصية، وعودته إلى الخدمة في صفوف الاحتياط، وقف في طابور الجنود حيث خطب فيهم قائدهم العسكري رحبعام زئيفي (الوزير لاحقاً، والذي

اغتاله أفراد من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠١ حين مكث في فندق "حياة ريجنسي" في القدس) مشيراً إلى جبال الأردن قائلاً بلهفة عظيمة: "تلك الجبال أيضاً تقع في أرض إسرائيل، هناك أيضاً في جلعاد وباشان عاش أجدادنا" (ص ١٧). ولاحقاً يطلعنا الباحث على السبب المباشر لانكبابه على كتابه هذه الدراسة: فبعد صدور كتابه "اختراع الشعب اليهودي" نشر المؤرخ الإنجليزي الصهيوني المشهور سيمون شامة نقداً للكتاب جاء فيه: "فشل [الباحث في محاولته] لفصل رابط الذاكرة بين أرض الآباء وبين التجربة اليهودية" (ص ٢٠). ويعترف زاند بأنه فوجيء في البداية بهذا القول، لكنه بعد ورود مثله في مراجعات أُخرى للكتاب، فهم أن القول إن كتابه إنما يقوّض عملياً "حق اليهود في وطنهم القديم" هو أحد الردود المركزية على كتابه، وهو على ما يبدو الرد الذي نبّهه إلى وجوب الوقوف عند مسألة "أرض إسرائيل" بصفتها "الوطن القديم" للجماعة اليهودية.

بعد ذلك ينتقل الكاتب في الافتتاحية التي منحها عنوان "قتل اعتيادي، التطلعات إلى الخلاص، واسم مكان"، إلى محاولة تفكيك الأسطورة الصهيونية بشأن "أرض إسرائيل". فهذه الأسطورة تقول إن شعب إسرائيل عاش في كنعان / فلسطين وتبلورت شخصيته القومية على ترابها، تماماً كما جاء في وثيقة إعلان إقامة دولة إسرائيل، لكنه أُجلي عنها عنوة على يد الرومان في أعقاب دمار الهيكل الثاني في القرن الأول للميلاد، ومع ذلك بقي على ترابها بعض السكان اليهود الذين حافظوا على الأرض وفلحوها. ويرى المؤلف أن هؤلاء هم سكان البلد الفلسطينيون الذين نُسبوا لاحقاً إلى العرب، وقد صلّى جميع اليهود وتشوّقوا على مدار العصور منذ ١٩٠٠ عام "للعودة" إلى "الوطن التاريخي" كي يعيدوا أمجادهم وينشئوا كيانهم السياسي المستقل على ترابه. علاوة على ذلك، مُنح الشعب اليهودي شرعية سياسية وأخلاقية دولية، فضلاً عن التوراة طبعاً، واعترافاً بحقوقه في "أرض إسرائيل"؛ وتلك الشرعية وذلك الاعتراف يتجسدان بوعد بلفور بصورة خاصة.

وفي بداية مشواره نحو تفكيك هذه الأسطورة وتقويضها، يؤكد الباحث أنه حتى لو افترضنا أن أصول اليهود تعود "عرقياً" إلى أصل واحد مصدره كنعان/ فلسطين، فكيف يمكن إرجاع عقارب الزمن إلى أكثر من ١٩٠٠ عام إلى الوراء، وإعادتهم إلى "موطنهم الأصلي"؟ ماذا بشأن بقية الشعوب والجماعات الأُخرى التي ربما ستطرح الادعاء نفسه وتطالب بإعادتها إلى "مواطنها الأصلية"؟ هل يمكن لعاقل أن يوافق على ادعاء ضرورة عودة المسلمين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية وإنشاء دولة إسلامية هناك لأن أجدادهم طُردوا منها في الماضي؟ ويشدد الباحث على حقيقة أن فكرة "أرض إسرائيل" كموطن قومي تاريخي لليهود هي فكرة أوجدها وعززها التيار الإنجيلي البروتستانتي، والأوروبيون المعادون لليهود واليهودية منذ مطلع القرن التاسع عشر الذين طالبوا اليهود بالخروج من بلادهم واللجوء إلى "موطنهم الأصلي" في فلسطين. وقد ردّ الباحث على هذا الادعاء في كتابه السابق، وبيّن أن أصول يهود شرق أوروبا هي شرق أوروبا نفسها، لأن جماعات كبيرة

تهوّدت هناك وتنقّل بعضها بين بلاد أوروبا شرقها وغربها (ص ٢٥–٢٦، ٣٨، ويخصص لذلك فصلاً طويلاً هو الفصل ٣).

علاوة على ذلك، لا ينكر الباحث وجود شوق يهودي روحاني إلى صهيون، لكن هذا الشوق صادر عن جماعات دينية مضطهدة تتوق عملياً إلى انعتاق روحاني من واقعها المرير، وطبعاً ليس إلى أرض جغرافية فعلية. وحتى لو كان هذا الشوق إلى مكان مقدس فإنه لا يمنح صكوك ملكية على هذه الأرض، ولا يمكن أن نستدل من خلاله على توق الجماعة الدينية اليهودية إلى المطالبة بتملّك جماعي على وطن قومي، لأن "أرض إسرائيل" التي تظهر في كتابات وشعارات الصهيونيين والإسرائيليين، ليست قريبة من الأرض المقدسة التي اتخذها اليهود القدماء قبلة لهم في صلواتهم (ص ٢٨–٢٩). كذلك، بالنسبة إلى العديد من هؤلاء اليهود القدماء، فإن "أرض إسرائيل" هي بمثابة تعبير مجازي يشير إلى مقام روحاني لا إلى مكان جغرافي عيني (ص ٣٠). ومن المثير في هذا الفصل إشارة الكاتب إلى حقيقة أن كتباً متنوعة تاريخية وأدبية وغيرها تذكر كلمة فلسطين أو أسماء أُخرى، وتُرجمت إلى اللغة العبرية في القرن العشرين في ظل الأيديولوجيا الصهيونية، قد استُبدلت هذه الأسماء جميعها بعبارة "أرض إسرائيل"، حتى إن الأدبيات الصهيونية الأولى لمؤسسي الصهيونية (مثل هيرتسل ونورداو وبوروخوف)، والصادرة بلغات أوروبية متعددة، استخدمت كلمة فلسطين، لكنها استُبدلت حين تُرجمت إلى العبرية لتصبح "أرض إسرائيل" (ص ٣٣). والأمر هو نفسه فيما يتعلق بالكتب القديمة (الصادرة في القرون الأولى بعد الميلاد)، مثل كتب يوسيفوس فلافيوس (٣٧ – ١٠٠م) التي صدرت باليونانية (ص ٣٧). وفي هذا السياق لا بد لنا من الإشارة إلى حقيقة أُخرى فحواها أن جميع رجال الدين والمفسرين والمفكرين اليهود الذين كتبوا باللغة العربية في العصر الوسيط، وأشهرهم سعيد الفيومي (ت. ٩٤٢م)، والشاعر الأندلسي يهودا اللاوي (ت. ١١٤١م)، وموسى بن ميمون (ت. ١٢٠٤م)، قد استخدموا تعبير "بلاد الشام" (أو "بلد الشأم")، لكن حين نُقلت كتاباتهم إلى العبرية منذ القرن الثالث عشر جرت ترجمة هذا التعبير إلى "أرض إسرائيل"، وأضحت هذه الترجمة سائدة ولا تزال بين المترجمين المعاصرين. وبما أن الكاتب غير مطلع على هذا التراث اليهودي، فإنه لم يشر إلى هذه الحقيقة التي كان لها أن تعزز طرحه العام.

يتوقف الفصل الأول وعنوانه: "استحداث أوطان: من الحتمية البيولوجية إلى تملك الأمة [للوطن]" عند تاريخ مفهوم الوطن في التراث الثقافي الغربي، بدءاً من التراث اليوناني والفكر الجمهوري الروماني، وصولاً إلى الفكر القومي والفكر الجيوسياسي النازي واستيعابه في الممارسة والفكر الصهيونيين: وطن بمعنى بيت الأسرة الواحدة، ومكان إقامة العائلة الممتدة، ومكان الولادة، والقرية التي ترعرع فيها الفرد، والوطن بمعنى النظام المدني الذي يعيش بين ظهرانيه الفرد، وفكرة الوطن بمعنى الأم الأصلية للشعب. وطبعاً لا يمكن تصوّر مثل هذا العرض بمعزل عن الفكرة القومية الأوروبية في مطلع العصر الحديث، إذ كان لا بد من استحداث حيّز جغرافي (مدى حيوي) لكل شعب هو أشبه بكائن عضوي.

ينتقل الكاتب في الفصل الثاني، وعنوانه: "أسطرة البلاد ـ ميتريتوريا ـ في البدء وعدَ الله البلاد"* إلى الكلام عن مفهوم الوطن بصورة عامة، و"أرض إسرائيل" بصورة خاصة، كما تنعكس في الكتب اليهودية المقدسة وكتب التاريخ والفكر اليهودي في العصرين الإغريقي والروماني، وصولاً إلى نهاية القرن الثامن عشر. ويشير الكاتب هنا إلى حقيقة أن مفهوم وطن الذي يظهر في التوراة ١٩ مرة فقط يفيد بمعنى مكان الولادة، أو المكان الأصلي للأسرة. وجميع أنبياء إسرائيل وزعمائهم في العصور الأولى لليهودية عبّروا عن حنينهم إلى أوطانهم (بابل ومصر)، واستهزؤوا بوطنهم الجديد وبسكانه (كنعان)، وبلغ ذلك الاستهزاء إلى حد بلورة تصوّر شوفيني عدائي إجرامي في تعاملهم مع سكان بلاد كنعان الأصليين، وأبلغ سفر لهذا التصور (الإبادة الجماعية) بلا منازع هو سفر يشوع. كما أن تعبير "أرض إسرائيل" لا يظهر في التوراة. ويؤكد الكاتب أن مجمل الكتب المقدسة اليهودية لا تضفي أي معنى سياسي لبلاد كنعان / فلسطين، أي لا تفيد بوجود أي ضرورة لبناء كيان سياسي لليهود في هذه البلاد، وإنما هي بلاد مقدسة فُرِضت على سكانها شرائع كثيرة من العسير جداً القيام بها، وهي أشبه بأحكام الإقامة ضمن أي حرم مقدس كالحرم المكي أو حرم المدينة أو الإقامة ضمن كنيسة المهد أو كنيسة القيامة مثلاً. ونشهد أيضاً محاولات متعددة لرؤية تعبير "أرض إسرائيل" بصفته عبارة مجازية تعني "الحياة الآخرة"، وأن كل من يصلّي لأرض إسرائيل يعني التضرع إلى الرب كي يحصل على "نصيب في الحياة الآخرة."

أمّا الفصل الثالث وعنوانه: "من الحج المسيحي إلى صهيونية مسيحية: بلفور يعِد بالبلاد"، فيتوقف عند بلورة فكرة "أرض إسرائيل"، كمكان جغرافي له دلالات سياسية لشعب إسرائيل، على يد أعضاء التيار الإنجيلي البروتستانتي في مطلع القرن التاسع عشر في أوروبا (وخصوصاً في بريطانيا)، ويشير إلى دورهم البالغ على عدة صعد لتحضير الأرضية لإنشاء كيان يهودي في فلسطين؛ ذلك التحضير الذي كان حيوياً جداً لإقامة دولة إسرائيل، ومن دونه لم تكن ربما إسرائيل لترى النور (ص ١٥٠). ويتوقف الكاتب عند بعض الشخصيات المحورية التي كان لها أدوار حيوية لتعزيز فكرة "أرض إسرائيل" البروتستانتية وتهيئة الأرضية لنشوء دولة إسرائيل (كبلفور).

يحاول الكاتب أيضاً البحث عن بدايات الحج اليهودي إلى فلسطين، واعتماداً على مراجع بحثية أُخرى، يستنتج أن ظاهرة الحج اليهودية ظهرت مع الاحتلال الإفرنجي (الصليبي) لفلسطين فقط، بصفتها ردة فعل على هذه الخطوة. وجاء في هذا الفصل أن ٣٠ مؤلَّفاً معروفاً صدرت منذ سنة ١٣٦م حتى أواسط القرن التاسع عشر في العالم اليهودي تصف مسيرات حج يهودية. وفي المقابل، ظهر في العالم المسيحي منذ سنة ٣٣٣م حتى سنة ١٨٧٨ نحو ٣٥٠٠ مؤلَّف تسرد قصص الحج المسيحي إلى الأرض المقدسة (ص ١٣٥–١٣٦).

يتوقف الفصل الرابع عند جزء مركزي هو: "الصهيونية ضد اليهودية: احتلال الحيِّز

* ميتريتوريا: هي دمج لكلمتين باللغات الأوروبية، ميتوس (أسطورة) وتريتوريا (إقليم، أرض).

الإثني"، ويسعى لتتبع ترجمة مفهوم "أرض إسرائيل" البروتستانتية إلى مفهوم صهيوني يهودي، ثم ترجمته على أرض الواقع، وتحوّله إلى مشروع سياسي وعسكري حملته الحركة الصهيونية، ويتطرق إلى ردات أفعال التيارات الدينية اليهودية السلبية عليه والمقاوِمة له لأنه يقوّض مفهومها الإيماني الروحاني والمجازي لتعبير "أرض إسرائيل"، ويحوّله إلى مكان جغرافي لا علاقة له بالدين والعقيدة أو بالبُعد الروحاني. كذلك يتتبّع هذا الفصل مراحل تحويل التوراة إلى صك ملكية علماني يشهد على حقوق ملكية يهودية حصرية على فلسطين، ويسلّط الضوء على مساهمة المؤرخين اليهود في هذا الصدد.

وجاء في معرض تعرّضه لأصول اليسار الصهيوني ومقارنته باليسار الأوروبي أنه خلافاً لليسار الأوروبي، فإن اليسار الصهيوني نشأ على أساس ضرورة احتلال الأرض وإنشاء منظومة استيطانية قومية عرقية يهودية إقصائية في فلسطين (ص ٢٢٨). كذلك يتوقف هذا الفصل عند نقطة التحول من "الاستيطان الاشتراكي" (الصهيوني الكلاسيكي) إلى "الاستيطان الديني القومي" (الصهيونية الجديدة)، والذي يتجلى حالياً في الحركة الاستيطانية في الضفة الغربية وقطاع غزة.

ويحمل الفصل الخامس القصير جداً (٤ صفحات فقط) عنوان: "بدل تلخيص: قصة العقرب والضفدع الحزينة"، وهو خلاصة لبعض أهم الأطروحات التي توقّف عندها في الفصول السابقة.

أمّا خاتمة الكتاب وعنوانها: "حول قرية بصفتها مثالاً وذاكرة بصفتها مغزى"، فتسعى للتوقف عند مصير قرية الشيخ مونّس التي هُجّر سكانها ونُهبت بيوتها ودُمّرت واقتُلعت بساتينها أخيراً، وشُيدت جامعة تل أبيب على أنقاضها، وهي الجامعة التي يكتب الباحث كتابه هذا في إحدى غرفها، علاوة على حقيقة تستدعي التهكم وتتلخص بتشييد أربع دوائر للذاكرة اليهودية على أراضي القرية: "متحف أرض إسرائيل"؛ "متحف البالماخ"؛ "المتحف الإسرائيلي في مركز رابين"؛ "متحف الشعب اليهودي ـ بيت الشتات".

على صغر هذا الكتاب فإنه، وربما بصورة مبالغ بها في رأي البعض، يطمح إلى الامتداد فترة زمنية طويلة جداً (أكثر من ٢٠٠٠ سنة) لتلخيص فكرة "أرض إسرائيل" القومية المتخيلة التي شُيِّدت في العصر الحديث بفضل تيارات غير يهودية متنوعة: إنجيلية أوروبية، وإمبريالية إنجليزية، ودينية ـ عقائدية أميركية، ومعاداة اليهود واليهودية الأوروبية، فضلاً عن مفاهيم قومجية عرقية غرب أوروبية، وأُخرى إثنية سياسية شرق أوروبية، وأُخرى رومانسية ترى في أجزاء معينة من الأرض مهد الأمة. ويُعتبر الكتاب أساسياً جداً لفهم الحركة الصهيونية وسلوكيات المنظمات والحركات والأحزاب الصهيونية الحالية بكل ما يتعلق بالأمر السياسي ومستقبل التفاوض معها بشأن تقسيم البلد، أو إنشاء كيان سياسي مشترك، ويكشف عن المسلمات الصهيونية غير المصرَّح بها، والتي تحكم الأحزاب الصهيونية جميعها في إسرائيل.

نبيه بشير
باحث فلسطيني